دكتور بهاء الأمير

مفتاح الشفرة اللغوية في صدر سورة الإسراء

ومن يكون العباد

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾
قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾



٢٠٢٠م

السؤال

Zn8aZn8a

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بارك الله فيك دكتور بهاء الأمير.

قرأت سابقًا كتاب شفرة سورة الإسراء؛ ووجدت أن تفسيركم لفواتح السورة هدي وفتح عظيم؛ ولا أتألى على الله؛ إلا أنني أحسب أن الله أكرمكم به جزاء ما تفعلون من تعقب آثار بني إسرائيل وكشف إفسادهم، وأسأل الله أن أكون مصيبًا في ذلك.

مؤخرًا استوقفني قول الله: ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فعدت لكتابكم دكتور، ولم أجد أنكم توقفتم عند: ﴿كَمَا﴾؛ فإذا كانت أول مرة هي دخول عمر بن الخطاب كما بينتم؛ فهل: ﴿كَمَا﴾التي تفيد التشبيه؛ تعني أن دخول العباد في المرة الآخرة سيكون كدخول عمر، بغير حرب وباستسلام المحتلين؟! وكيف نفهم ذلك مع ذكر تتبير علوهم وإساءة وجههم؟

وهناك ملاحظة وقفت عليها؛ وهي أن فعل "**دخول المسجد**" في القرآن ورد مرتين، في آية الإسراء؛ والثانية في دخول النبي ﷺ المسجد الحرام: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.

والملاحظ أن الدخولين كانا نبوءة تتعلق بشيء آتٍ؛ فدخوله ﷺ المسجد الحرام "رؤيا" تأولت بفتح مكة؛ ودخول العباد المسجد الأقصى نبوءة سيأتي تأويلها!

والعجيب أنه في سورة الإسراء قال الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾، وقال ابن عباس إنها رؤيا عين رآها النبي في الإسراء والعروج.

وفي الحديث: (فما زايلَا ظَهْرَ البُراقِ حتَّى رأيا الجنَّةَ والنَّارَ و"**وعدَ الآخرةِ**" أجمعَ)، وعد الآخرة هنا يحتمل أن يكون يوم القيامة كما ذكر شراح الحديث؛ ولكن قد يحتمل أنه وعد

الآخرة الذي في سورة الإسراء! وفي أول السورة أعقب الله ذكر الإسراء بقوله:﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾!

كذلك آية دخول المسجد الحرام، أعقبها ذكر إظهار الدين على الدين كله؛ وذكر العباد أولي البأس الشديد: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾، وهي التي استشهد بها الدكتور على أن العباد في سورة الإسراء هم هؤلاء!

الإجابة

دكتور بهاء الأمير

(١)

قبل الكلام عن صدر سورة الإسراء، لابد من بيان قواعد ومسائل منهجية عند التعامل مع القرآن وتفسير آياته، وهي أهم من التفسير نفسه.

وأول هذه المسائل أن نص القرآن أعلى من كل من يفسرونه، وهو يحكمهم وهم لا يحكمونه، ومن ثَم فأي تفسير لآية أو آيات في القرآن، لا يتوافق مع نصها أو يخرج عليه، فلا محل له، ويسقط تلقائياً، أياً كان اسم قائله أو علمه أو شهرته ومنزلته.

ولا يدخل في منهجنا وما كتبناه في كل كتبنا، ولا في العلم أصلاً، أن تفسيراً لأي آية أو نص في القرآن يكون صحيحاً، فقط لأن الذي قاله هو الإمام فلان أو الشيخ علان.

وباستثناء النبي عليه الصلاة والسلام الذي يوحى إليه، وكلامه حجة في ذاته ولا يحتاج إلى دليل من خارجه، فكل تفسير يقوله أي أحد كائناً من كان، قوته في منهجه وأدلته وتوافقه مع نص الآيات وقدرته على تجليتها، وليس لأن فلاناً هو الذي قاله.

ومناسبة الكلام عن هذه المسألة، الطريقة التي تعامل بها بعض المتعالمين وحفظة الأكلشيهات في بلاليص ستان مع ما قلناه في كتاب: شفرة سورة الإسراء، فبدلاً من فحص ما قلناه ومضاهاته بما قاله الأئمة رحمهم الله ثم عرض هذا وذاك على الآيات نفسها والحكم أيهما أكثر توافقاً مع نص الآيات وقدرة على بيانها وتجليتها، بدلاً من ذلك أطاحوا إطاحة العميان بما قلناه دون أن يجهدوا أنفسهم في فحصه، بل دون أن ينظروا فيه، فقط لأنه يخالف ما هو مكتوب في المجلدات القديمة.

ومن كتبو هذه المجلدات لا تثريب عليهم، لأن صدر سورة الإسراء يحوي مسألة كونية، ويحتاج تفسيرها إلى وعي بمسار التاريخ ومسيرة البشرية، وإلى معارف متنوعة لم تكن في حوزتهم ولا يعرفون عنها شيئاً.

(٢)

المسألة الثانية، وهي وثيقة الصلة بالأولى، أن القرآن نص معجز في فحواه ومضمونه، وفي أسلوبه وصياغته، وذروة الإعجازين معاً أن النص الواحد في القرآن يحوي معارف متعددة في مجالات شتى، فتجمع الصياغة المعجزة للآية الواحدة بين العقيدة والموعظة والمسألة العلمية الكونية والإخبار التاريخي.

وتفسير هذا النص والوصول إلى المعارف التي تسري في هذه الصياغة المعجزة، لا يتأتى بالنظر العابر ولا بالتفسير الإجمالي للنص، ولا حتى بتفسير كل آية أو حرف، بل بفحص دقيق لنسيج الآيات، ووضعها تحت ميكروسكوب لغوي يقوم بتكبير تفاصيلها وإبراز العلاقات الداخلية بين كلمات هذا النسيج وحروفه، اختياراً للكلمات، وتقديماً وتأخيراً، وإثباتاً وحذفاً، وإفراداً وتكراراً، ثم بعد ذلك عين بصيرة نفاذة ترى هذه التفاصيل والعلاقات الدقيقة، وعقل حاد يدرك ما تعنيه.

وكلما كان الميكروسكوب اللغوي الذي تُفحص به الآيات أقوى وأدق، والعين الفاحصة أحد، والعقل أوسع وأكثر قدرة على النفاذ والربط، فسيكون ما ينتجه فحص الآيات من معانٍ ومعارف أغزر وأعمق وأكثر تنوعاً.

(٣)

والمسألة الثالثة، أن فهم نصٍ ما في أي كتاب فهماً صحيحاً، لا يكون إلا في داخل هذا الكتاب وفي إطار العلم أو المعرفة التي ينتمي إليها.

والجملة الواحدة إذا جاءت في كتاب عن الفلك والفيزياء يجب فهمها وتفسير ما تعنيه بطريقة تختلف عن تلك التي تُفهم بها إذا جاءت في كتاب عن التاريخ، وبطريقة ثالثة مختلفة تماماً عن هذه وتلك إذا جاءت في كتاب عن الديكور والمطبخ.

وجُل من فسروا صدر سورة الإسراء، تعاملوا مع القرآن على أنه كتاب تاريخ أو برديات محفوظة في متحف، وأن صدر سورة الإسراء ليس سوى صفحة في كتاب التاريخ هذا، أو واحدة من هذه البرديات، ومن ثَم كان عقلهم وهم يفسرون يستعرض أحداث التاريخ مجزأة

ومنفصلة ومعزولة عن بعضها، ويبحثون عما تتكلم عنه الآيات في وقائع تاريخية موقوتة بلحظتها ومكانها.

والقرآن ليس برديات ولا كتاب تاريخ، بل هو كتاب لفهم الوجود والحياة وتفسير التاريخ كله والمسار الذي يسير فيه، وأي تفسير لأي مسألة فيه يجب أن يكون في هذا الإطار.

(٤)

بعد هذه المسائل المنهجية، إلى صدر سورة الإسراء.

وأول مسألة في الآيات هي أن جميع من تعاملوا مع صدر سورة الإسراء ونهضوا لتفسيرها قديماً وحديثاً، كان شاغلهم الأول في الآيات والمسألة المحورية التي يدورون حولها هي كلمة: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾، ومن يكون هؤلاء العباد، وفي أي زمان أتوا أو يأتون، بينما المسألة المحورية الحقيقية في صدر سورة الإسراء، هي الفساد وما الذي يعنيه وكيف تكون إزالته.

فالفساد شائع في التاريخ كله، وملازم لمسيرة البشر، وكل أمم الأرض فسدت أو أفسدت، فلماذا النص على إفساد بني إسرائيل دون غيرهم من الأمم؟!

ونص الآيات على أن هذا الإفساد مرتان بالعدد، بينما لا تخلو لحظة في التاريخ من الفساد والإفساد، يعني أنه فساد مخصوص ومختلف عن أي فساد آخر مما يعرفه البشر ويرونه في كل زمان.

ويرتبط بذلك أن جُل من فسروا من يكون هؤلاء العباد، فعلوا ذلك بعد أن مزقوا نسيج الآيات، وانتزعوا كلمة: ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ من هذا النسيج، فلا تفهم في التفسير الذي يفسرونه ما علاقة هؤلاء العباد بآية الإسراء التي تتصدر السورة، ولا بعبده الذي أسري به، ولا بالوحي وإنزال الكتاب على موسى هدى لبني إسرائيل قبلها، ولا بالقرآن الذي يهدي للتي هي أقوم بعدها.

وهم لم ينتزعوا كلمة ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ من نسيجها اللغوي في صدر سورة الإسراء فقط، بل وانتزعوا أيضاً آيات سورة الإسراء كلها من القرآن، وعزلوها عنه وعن سيرة بني إسرائيل

وموقعهم من البشرية فيه، وتفسير ما يريد أن يخبرنا به عز وجل عن بني إسرائيل في صدر سورة الإسراء، لا يمكن فهمه إلا داخل ما يخبرنا به عنهم في القرآن كله ومرتبطاً به.

(٥)

عند فحص صدر سورة الإسراء بميكروسكوب لغوي، وليس بالطريقة العمومية التقليدية التي تفهم المعنى بصورة إجمالية، أو تفسر كل كلمة وحدها بمعزل عن أخواتها، ودون انتباه للتفاصيل الدقيقة لنسيج الآيات والعلاقات بين كلماتها وحروفها، عند الفحص يسفر النص عن أشياء يقينية يخبرنا بها عن هؤلاء العباد، وعن دخولهم المسجد، وتسليطهم على بني إسرائيل، وعن بني إسرائيل أنفسهم وموقعهم من الأرض كلها ومن المسجد.

وأي قول أو تفسير يخالف هذه الإخبارات اليقينية التي توجد في الآيات نصاً فهو ساقط أياً كان قائله.

وهذه الإخبارات هي:

أولاً: أن العباد الذين يسلطون على بني إسرائيل في المرتين أمة واحدة، لأن الضمائر في: ﴿لِيَسُۥٓـُٔواْ ...... وَلِيَدۡخُلُواْ﴾ من قوله تعالى عن المرة الثانية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، هذه الضمائر تعود على العباد أنفسهم المذكورين في المرة الأولى في قوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾.

وثانياً: هذه الأمة الواحدة موجودة ووجودها متصل بين المرتين وإن علا بنو إسرائيل عليهم، لأن الضمير في: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ يعود على هؤلاء العباد أيضاً.

وثالثاً: بنو إسرائيل موجودون في المسجد وحوله وجود علو وتشييد عند دخول العباد إليه في المرة الثانية، ولا وجود لهم فيه وحوله في المرة الأولى، لأنه عز وجل يخبرنا أن العباد يدخلون المسجد في المرتين، لكن تتبيرهم لما علا بنو إسرائيل يكون في الثانية فقط: ﴿فَإِذَا

جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾.

رابعاً: من يكون هؤلاء العباد منصوص عليه نصاً عند ختام السورة، وغفلة من فسروا صدر سورة الإسراء عنهم، هو نتاج ما أخبرناك به من انتزاع الكلمة من صدر السورة، وانتزاع صدر السورة من السورة كلها، وعزل هذه وهذا وتلك عن القرآن وإخباراته عن بني إسرائيل، وأيضاً نتاج التعامل مع الآيات على أنها بردية في متحف أو صفحة في كتاب تاريخ، والبحث عن تفسيرها في الإسرائيليات ووقائع موقوتة زماناً ومكاناً.

فالشفرة اللغوية شديدة الثراء والتركيب في صدر سورة الإسراء، مفتاح حلها في قوله تعالى عند ختام السورة:

﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾

فالآيات تنص نصاً على أن الوعد المفعول الأول هو تنزيل القرآن، والعباد الذين أخبر الله عز وجل بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزل على موسى أنه سيبعثهم عليهم هم أمة القرآن، والنبي الخاتم المبعوث به هو أول هؤلاء العباد، والعبد الذي نصت عليه السورة في أول آياتها:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾

والذين أوتوا العلم من أهل الكتاب حين يسمعون القرآن ويرون النبي المبعوث به وأمته، كما تخبرنا الآيات، يعرفون أنه هو الوعد المفعول الذي وعدهم الله به، ويُقِرون به وهم يخرون سجداً قائلين:

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾

(٦)

هذه الآيات في ختام سورة الإسراء ليست مفتاحاً لمعرفة من هم العباد فقط، بل وأيضاً هي مفتاح لفهم الغاية من بعث العباد، وضوء ساطع يكشف المسألة المحورية في آيات صدر سورة الإسراء، والتي تاه عنها كل من تعرضوا لتفسيرها، وهي معنى الإفساد الذي يفسده بنو إسرائيل، والذي خصه عز وجل بالذكر ونص عليه بهذا النص المشع من جميع جوانبه، دون أي فساد أو إفساد آخر شهدته البشرية في جميع عصورها.

فالآيات تخبرنا نصاً أن الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب يعرفون الوعد المفعول الذي وعدهم عز وجل به في الكتاب الذي أنزل على موسى، ويخرون للأذقان سجداً وهم يرونه يتحقق، بمجرد سماعهم للقرآن يُتلى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وهم: ﴿ **يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا** ﴾ من قبل أن تكون للنبي المبعوث بالقرآن دولة ولا قوة يتهددهم بها، وسورة الإسراء مكية وليست مدنية، وصدرها نزل مع الإسراء بالنبي قبل الهجرة بسنة كاملة.

ومن ذلك تفهم أن الوعد المفعول الذي أخبر الله عز وجل به بني إسرائيل في الكتاب الذي أنزله على موسى واستحفظهم إياه، ليس مجرد عقابهم ولا التنكيل بهم، كما فهم جميع من فسروا صدر سورة الإسراء، بل الوعد المفعول هو إصلاح ما أفسده بنو إسرائيل، بإعادة الوحي الذي حجبوه إلى العالم وكشفه للبشرية، وتكوين أمة به غير بني إسرائيل، وتكفل الذات الإلهية بحفظه وعزله عن مسار البشرية وتقلباتها.

فالوعد المفعول هو القرآن نفسه.

ومن هنا تعرف أن الإفساد وعلو بني إسرائيل المقصود في مرتي الإفساد في صدر سورة الإسراء، ليس القتل ولا التخريب، ولا تكوين دولة، ولا امتلاك جيوش وأسلحة نووية، بل هو في المرة الأولى إفسادهم للأرض كلها بحجبهم للوحي الذي استحفظهم الله إياه عن العالم

وإخراج تحريفه للبشر، وفي المرة الثانية إفسادهم للأرض كلها مرة أخرى بإزاحتهم للوحي المحفوظ من وعي العالم ومعارفه، ومن معماره وأنسجته القيمية والأخلاقية والاجتماعية، وإعادة صناعته وتكوينه بالتحريف، عبر المناهج والنظريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية والآداب والفنون التي نبعت من هذا التحريف وارتوت به ويتدفق في تفاصيلها وثناياها.

وهو ما فصلناه في كتاب: شفرة سورة الإسراء تفصيلاً.

(٧)

كلمة: **كما** في العربية، تتكون من الكاف وما، والكاف حرف جر يفيد التشبيه، و**ما** قد تكون اسماً موصولاً بمعنى الذي أو بمعنى كلمة شيء، وقد تكون حرفاً زائداً أو حرفاً مصدرياً.

وكما تفيد تشبيه ما قبلها بما بعدها، وهذه المشابهة بين ما قبلها وما بعدها قد تكون من جميع جوانبهما، أو في إحدى الصفات والجوانب.

وعلى ذلك فقوله تعالى: ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، يحتمل أن يكون المقصود به تشابه صفة دخول العباد إلى المسجد في المرة الثانية مع صفة دخولهم في المرة الأولى، أو أن المشابهة بينهما في أصل الدخول إلى المسجد دون صفته.

وإخبار الآيات عن وجود بني إسرائيل في المسجد وحوله في المرة الثانية، وسَوْء العباد لوجوه بني إسرائيل وتتبيرهم لما علوا تتبيراً، يوحي بان دخول العباد إلى المسجد في المرة الثانية سيكون حرباً لا سلماً.

والمسجد في المرة الأولى كان في حوزة الرومان، وهم الذين سلموه لأمة القرآن، وليس بنو إسرائيل، والمسجد الأقصى لم يكن له عند الرومان القداسة والمنزلة التي للهيكل وجبله عند بني إسرائيل.

دكتور بهاء الأمير

غرة صفر ١٤٤٢هـ/١٨ سبتمبر ٢٠٢٠م